للاستاذ الجواهري وتم خاص القصصية في حيز كتاب يفيد القارئ فيما يكتب من القصة العربي وبلغه خاصة فيما يعالج ولعل في ذلك سر نجاحه وأملنا أن في طريقه من مشاكل وامور اجتماعية نافعة يخرج بجاميعه قلم التحرير

الى القمة

بقلم الاستاذ حسن الجواهري

نشأ فقيراً في اسرة خاملة ليس فيها ما يبعث على التشجيع لممارسة الحياة المستقبلة ممارسة جدية ذات اثر فعال في حياة البشر الاجتماعية وكان جميع ذوي قرباه يكتفون بالربح اليومي يصرفونه على شؤونهم البيتية المحدودة فلم يفكر احد منهم في غير ذلك النمط من العيش المرذول والحياة التافهة المملة لضيق دائرة تفكيرهم وثقل وطأة الفاقة والعوز عليهم جميعاً .

وكان قد فقد ابويه وعمره لايتجاوز العشرة سنين وبقي منفرداً يتجرع مرارة اليتم ويعاني ألم الحرمان يصبر وجلد عظيمين . اشتغل صانعاً في مخبز ، ثم كاتباً في متجر ثم عاملاً في مطبعة وفي كل مراحله العملية يظهر مثلا رائعا لحسن السيرة واستقامة الاخلاق الامر الذي جعله مضرب المثل في الامانة والاخلاص عند ذوي الاعمال الذين جربوه وعرفوا سيرته واخلاقه . فكانوا يفسحون له مجالا للعمل في طرق مكاسبهم باجور زهيدة لاتسد الا الرمق فقط . والناس مطبوعون على الشح مجبولون على الاقتصاد من قديم الزمان فهم لايجودون الا الماما ولا يعطون الا نادراً لذلك بقي احمد فقيراً معدما بالرغم مما يظهر من نشاط وحركة وبالرغم من وفرة المال بين يديه عندما يحسبه ويصرفه حسبما تقتضيه ظروف الكسب والتجارة مادام في مقر وظيفته ، اما اذا ما آوى الى حجرته الواطئة الضيقة فلم يملك سوى مخيلته الواسعة وتفكيره الخصب وفطنته وذكائه وعندما يعود الى عمله يقبل عليه اقبال المجد الذي يؤمن في الحياة ويزن موازينها وكان يشغل تفكيره وضع اسرته الفقيرة الخاملة المنطوية على البؤس المطبوعة على الحرمان الضجرة الجازعة . يريد ان ينهض بها نهوضا يبوأها مكاناً مرموقا في هذه الحياة التي جعلها الله ميدانا فسيحا لخلقه ومضطربا واسعا لعباده . يريد ان يذيقها حلاوة المال وعزة الجاه وعظمة المجد يريد ان يجعل لها تاريخا يحفظ لها كرامتها وينطق بجهادها ويعترف بجدارتها لممارسة العيش الرغيد والحياة الهنيئة الصافية وكثيراً ما يسائل نفسه أليسوا هم افرادا من البشر لهم ابدانهم ولهم عقولهم ولهم قلوبهم ولهم تفكيرهم . لماذا يعيشون مملقين خاملين تفترسهم الامراض ويذلهم الفقر وتصهرهم العاقة . لماذا لا ابعث في نفوسهم الحمية ولا انفث في ارواحهم العزيمة . ولا احفز هممهم للطموح انهم بشر ومن حق البشر ان يعيش ولابد ان يعيش كريما بمثل هذه الاحاسيس الجياشة . كانت تتدفق على خاطره الاسئلة فينتفض لها انتفاض المقرور ويضطرب اضطراب المحموم . وراحت الايام تدور كعادتها وهي تقرب هذا العامل النشيط الى اهدافه بما يظهره من ضروب الجد والدأب ويسديه من افانين الكسب والربح الى رؤسائه . وقد اصبح ذا مكانة مرموقة عند التجار وغيرهم يعترفون جميعا بمقدرته وتفوقه ولايبخلون عليه بما يطلبه من معونة فيما اذا أرادها منهم آنذاك بدأ في وضع الحجر الاساسي في بناء صرح مجده ومجد اسرته بدأ يفاوض رؤسائه بعمل كبير يدر عليه وعليهم الارباح الطائلة عمل لا كسائر الاعمال التجارية الهينة انه يتطلب كثيرا من التضحية والمال . والصبر والجلد والمثابرة والنشاط . عمل زراعي عظيم يريد ان يضعه على عاتق اولئك الشر اذم من اسرته المتفرقين المبعثرين الجائعين لكي ينشلهم من مخالب الفقر ويسمو بهم الى قمة المجد والغنى ويضعهم في المحل اللائق من العز والكرامة . فلاقى طلبه ترحيباً واستحسانا من اناس لم يخطروا له على بال وراح المال يزحف اليه زحفا حتى بلغ مبلغا جسيما استطاع بواسطته ان يحوز ارضاً كبيرة بنى فيها بيوتا من الطين تسع جميع افراد اسرته واجرى فيها المياه الغزيرة واشترى جميع الادوات الزراعية التي ستحيل هذه الارض الى فردوس جميل تفيض منه البركات وتتدفق فيه الارزاق . ثم راح يعرض مشروعه العظيم على عموم افراد عشيرته ويدعوهم الى العمل الجديد بشتى ضروب الترغيب ومختلف انواع الاغراء حتى ظفر باستجابتهم له واذعانهم لنصائحه وكان قد تلكأ عليه بعضهم ورأى في ذلك خروجا

عن المألوف وأنتلابا في الوضع ولكنه استطاع اخيراً ان يحمل الجميع على قبول دعوته والاذعان لاوامره ، وفي يوم من تلك الايام التي سارت فيها عجلة الزمن سريعة لتغير مجرى حياة اسرة احمد تحركت القافلة المؤلفة من الاعمام والاخوال والاجداد والاحفاد وسارت متوجهة نحو ارض الخير حيث الخصب والنماء والغنى والثراء والصحة والجمال . يتقدمهم احمد صاحب المشروع العظيم وذو النظر البعيد وحامل لواء العزيمة ولما استقرت في المكان الذي اعد لها بدأت تشعر بشيء غير مألوف تشعر بالحرية والانطلاق والعز والمنعة والامل والرجاء احلام ذهبية رائعة اخذت تبرامها سبيل العيش الرغيد وترسم لها خطوات المستقبل البعيد جليلة واضحة ولا ريب وراح احمد يوزع العمل على قومه فكل اختص بنوع منه وراح يمارسه ويكدح فيه تحت اشعة الشمس وبين اكوام الرمل وابتسامة الامل ترقص على شفاه الجميع .

ومرت الايام سريعة متلاحقة وهي تحمل في ثناياها آمالا عذابا ومآرب جساما لاولئك النفر الذين بدأوا تجربتهم القاسية بكثير من الطاعة والخضوع لرسولهم الجديد ومقدمهم الخطير وكان طبيعياً ان تنمو عندهم الزروع ويتضاعف في محيطهم الماء ويرق جوهم ويتسع افقهم فها هي ذي سنابل القمح تعظم وتكاثف تعكس عليها اشعة الشمس فتلوح كصفائح الذهب تحركها قدود هيف من الزرجد والمس فيخلب بريقها الابصار ويأسر جمالها القلوب ، وهاهو ذا النخيل يرمى بسعفه منتشرا تشمر الحذلان تسعفه الايدي العاملة بالري والتسميد والاصلاح والتشذيب . وثم تلك الكروم وقد تعالت اروقتها وتكاثفت عناقيدها وامتدت الى مسافات شاسعة في ذلك الفردوس الجميل وهذه صفوف منسقة من اشجار الليمون والبرتقال والتفاح وما الى ذلك من اشهر الفواكه واجملها تمتد بخطوط هندسية في شتى جهات المزرعة وتختلف نواحيها ناشرة اغصانها في الفضاء وظلالها على الارض وانوارها في العيون . وانقضى العام الاول على تأسيس ذلك الوطن العزيز فكانت التجربة ناجحة الى ابعد حدود النجاح تبشر بمستقبل رائع سعيد وحياة هنيئة صافية وثراء طائل موصول . وراح احمد يوزع الارباح على القوم فاكتسوا بالجديد من الثياب وتلذذوا بالطيبات من الاكل واقتنوا مايصلح حالهم وينظم امورهم من الاثاث والفراش . وقد اصلحت البيوت وتكاثرت فيها وسائل الراحة والاطمئنان واقبلت السنة الثانية واستعداد القوم قائم على قدم وساق وراح احمد يسدد بعض ديونه ويرصد ماتبقى لديه من المال لشراء البذور وتصليح الادوات الزراعية وراحت الليالي والايام من هذه السنة تمتحن نشاط اولئك النفر الذين اقبلوا على العمل اقبال الظامئ على زلال الماء بشتى ظروف المفاجئات ومختلف انواع التقلبات فمن عواصف ثلجية عاتية الى اسراب من الجراد مخيفة الى امطار غزيرة جارفة الى حشرات قوية مهلكة غير ان هذه الآفات كانت تتحطم على صخور جلد القوم وصبرهم واحدة بعد الاخرى حتى انقضى العام بنجاح لايقل عن النجاح في السنة الاولى وهكذا اخذت السنون تتعاقب والاسرة تنمو وتزدهر آخذة باسباب العيش الرغيد متمسكة باهداب العمل الجدي والنشاط المثمر وقد تحولت البيوت الى قصور في داخلها الدل والثروة وعلى ظاهرها الابهة والجلال .

ما اجل الارادة القوية وما انبل الشعور الفياض . وما اعظم الهمة الوثابة فانها تخلق من العدم وجوداً ومن الخيال حقيقة ان هذه المناصر مجتمعة هي بكل معانيها قد تجسمت بشخص احمد فابرزته مثلا رائعاً وقدوة صالحة لمن يريدان يحيا حياة العز والمجد والغنى والثراء والراحة والنعيم وقد جاء دور تكريمه فالقوم في فرح يريدون ان يظهروا شعورهم تجاه مقدمهم العظيم ومصدر سعادتهم الفذ وقد اقاموا له مهرجانا عظيما تجلت فيه اريحيتهم وسخاؤهم للميان ومات الرجل بعد ذلك بايام معدودة فكان فيه الما وفقده خسارة لا لاسرته فحسب بل للناس جميعا فنصب له تمثال رائع يخلد شخصيته الفذة وعبقريته النادرة في وسط ذلك الفردوس الذي اسس بنيانه وشيد عمرانه وهاهو ذا اليوم قائم يصارع الزمن وخالد يكابح الفناء وسيبقى ما كرت وتعاقبت الاجيال رمزاً للعصامية الفذة وشعاراً للعبقرية النادرة .

تلك هي قصة احمد احببنا تلخيصها للكسالى الذين تقعد بهم الهمم على الذل والخنوع قانعين بالتافه الرخيص الذي لا يغني من جوع ولا يستر من عرى لعلها تكون عبرة لهم وحافزاً لهممهم فيجتازوا العصاب ليبلغوا القمة كما بلغها احمد من قبل .

النجف

حسن الجواهري